قصص وفرص

تأملات في قصة نبي الله نوح في سورة هود



فاطمة نعيم الركابي

قِصَصٌ وَفُرَصٌ

فاطمة نعيم الركابي


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

"

سورة هود هي السورة التي وضعت معالم العمل الرسالي انصح كل من يريد ان يكون رسالياً... أن لا يفارق سورة هود والتأمل فيها... انها كنز الرساليين والرساليات...

"

هذه العبارة كانت الحافز والملهم الاول لي لكتابة هذه التأملات في سورة هود وبالتحديد أول قصة رسالية ذكرت فيها وهي قصة نبي الله نوح(عليه السلام), نشرت على شكل مقالات وعملت على جمعها لتكون ايسر للمطالعة, ولعل فيها ما ينفع القارئ وتكون في ميزان اعمالنا وميزان من الهمنا هذه الخطوة(السيد بهاء الموسوي)

******

ملاحظة :عنوان " قصص وفرص" مستوحى من عبارة ذُكرتْ من قبل سماحة المرجع المدرسي في شرح سورة هود.

مقدمة
أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ؟

في سورة هود نجد العديد من القصص التي فيها تبيان للفرص التي وضعها تعالى أمام المجتمع الإنساني، وواحدة من هذه الفرص هي فرصة إرسال الرسل إليهم، وكأن هذه الآية {**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**} تقدم لنا مقدمة واضحة وتعريف مختصر وشامل لقصة رسل الله تعالى مع أقوامهم المرسلين إليهم، لنعيش حالة التذكر لا الغفلة.

ففي كل زمن هناك فريقان فريق عمى والصم وفريق البصيرة والسماع، ولولا أهل العمى لما وجد فريق أهل البصيرة، ومن تقديمهم على أهل البصيرة يمكن أن نفهم ذلك، لأنهم أصل إرسال الرسل وغاية من الغايات الأولى لبعثة الحجج الإلهيين.

فلو كان الناس من أهل البصائر جميعًا لكانوا قد اهتدوا ببصائرهم للحق، ولكن هم أصبحوا من أهل البصائر لأنهم استجابوا تارة واستقاموا على اتباع وموالات رسل الله تعالى، وتبرأوا من أعداء الله تعالى تارة أخرى.

أما أهل العمى فمنهم من تلبس بالعناد والكفر، ومنهم من لازالت فيه فسحة من النور ليهتدي ويعود لرشده ويستيقظ من غفلته، وهؤلاء لهم النصيب الأوفر من اهتمام الرسل.

فمن الملفت إن الآية وضعت أهل العمى في قبال البصيرة، والأصم في قبال السميع، فقد يكون الإنسان يرى بعينه الجوارحية، لكنه أعمى لا يرى بعينه الجوانيحية -أي أعمى القلب- قد أصاب قلبه الرين والطبع، فهم كانوا يرون آيات الله المتمثلة بحجج السماء ويسمعون ما أنزل إليهم من رسالات ربهم لكنهم لم يكونوا من أهل الاستجابة، لأنهم لم يكونوا من أهل الاستماع أي استيعاب ونفوذ كلمات الرسل للقلب. إذ عبرت الآية بالسميع والسامع ووضعته في قبال الأصم، فمن يسمع ولا يرتب أثر على ما سمع من موقف أو سلوك يقظة واستنارة هو يعامل معامل الأصم.

كما ونلحظ إنه تم الفصل بين الأعمى والأصم ولم تقل الآية كالأعمى الأصم، أي قد يكون هناك من هو أعمى البصيرة لكنه ليس بالأصم بل يسمع كلام الله تعالى لكنه لأنه بلا بصيرة هو لا يعي ما يسمع.

وهناك من هو بصير لكنه ليس بسميع أي يبصر الحقائق لكنها لم تدخل في قلبه بشكل يتحقق عنده استيعابها ووعيها ليعمل بها. وهناك من يعي الحقائق لأنه بصير فيعمل بها. وهناك من يسمع ويعي لكنه لأن بصيرته ضعيفة يكون ليس قوياً في ميدان العمل والسلوك. لذا المثال الأمثل هو البصيرة أولاً ثم ملكة الاستماع.

فحالة التذكر– كما يبدو – التي لأجلها ضرب الله تعالى لنا مثل هذين الفريقين هي أن نتفقد جوارحنا وجوانحنا: هل هي عاملة أم غافلة، هل هي ترى الحق حقًّا أم ترى الباطل حقًّا؟ هل هي تستمع للحق أم للهو؟ هل هذه العين ترى الحقيقة أم ترى وتشبعت بما يُصدر لها من تزين وزيف ووهم؟ فكل جواب لهذه التساؤلات تجعلنا نعرف المدخلات التي ملأنا بها وعاء هذا القلب؟ وبالنتيجة سنعرف في أي الفريقين نحن؟.

مُعَوقاتِ الأَخْذِ بالتَذْكِرَةِ

أول الرسل الذين ذكروا في سورة هود هو النبي نوح (عليهما السلام)، قال تعالى: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ(٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٢٦)**}، فحكاية الارسال لهذا النبي بدأت بغاية الانذار والتنبيه ولم يُذكر فيها التبشير، ولعل في ذلك اشارة لخلو قومه الذين أرسل إليهم من أهل الإيمان –الذين يخصون عادة بخطاب التبشير– ثم إن الآية قالت (نَذِيرٌ مُّبِينٌ) اي الواضح الذي لا لبس فيه ولا خفاء ولا تعقيد، وهذا دال أيضًا لى شدة جهل وعناد قومه.

والمبِين هو البيان الصريح أي هو الموجب عودة المبَيَن له إلى ما فطرت عليه نفسه من عقيدة التوحيد وعبودية الاله الواحد الاحد، والإنذار هو من دواعي خوف المنذر عليهم من استحقاق العذاب لعبادتهم غير الله تعالى، فالرسول أثر من آثار هذا المعبود، يأتي رحمة منه سبحانه لينجيهم من هذا المصير وليس ليجمعهم حوله.

كما إن لفظة(عَذَابَ) و(يَوْمٍ أَلِيمٍ) في وصف يوم القيامة -كما يقال إن الألم صفة العذاب- ففي ذلك إشارة إلى إن ذلك اليوم بحد ذاته على أمثال هؤلاء الذين لم يستجيبوا للنذر سيكون يوم أليم، فكيف إذا رافقه الجزاء وتحقق في حقهم، كيف سيكون الألم عندئذ؟! كما في قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، ولكن مع كل هذا لم يستجب منهم إلا القليل.

فواحدة من فوائد هذه السورة وآيات قوم نوح (عليه السلام) إنها تكشف لنا المعوقات النفسية التي منعت قوم هذا النبي من الاستجابة لدعوته، فهي نافعة لكل رسالي ليعرف كيف يتعامل مع قومه ومجتمعه، ونافعة لكل إنسان يريد أن يتفحص ذاته ليعلم هل فيه هذه المعوقات التي تحجبه عن الانتفاع من تذكرة الله تعالى عبر دعاته ورسله، أم إنه سلك مسلك هذه الأقوام وحمل أوصافهم وأعمى قلبه وضيع فرصته في هذه الحياة الدنيا وخسر آخرته؟!

مُعَوقاتِ الأَخْذِ بالتَذْكِرَةِ (١)

قال تعالى: {**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ(٢٧)**}، هذه أول آية تبين لنا مرحلة انقسام الناس الى فريقين تجاه تذكرة الرسول عبر الإنذار، إذ من الملفت هو أسلوب ردهم ومحاججتهم للنبي ممن وصفتهم الآية بأهل العمى الصم- التي تقدم الحديث عنها- إذ مقاييس الاستجابة من عدمها لديهم ليس ما عرفوا من نذر مبينة بل بما عبرت الاية (مَا نَرَاكَ)(وَمَا نَرَى) فهم أصحاب عيون ونظرة مادية للحقائق لا أصحاب بصائر، لذا كانوا من فريق العمى.

وكان حكمهم هو الظنون في تكذيب ما جاءهم، فالاستيقان يصاحب أهل البصائر والوعي والفهم والقلوب اليقظة والنفوس غير المعاندة، فأهل اليقين لا يقيسون الأمور بظنونهم، كما أمرهم تعالى بقوله: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**}، فأهل البصائر لا يُمرضون قلوبهم بالظنون، فيحجبهم سوء الظن

عن التصديق بدعوى أهل الحق، بل ورؤية الحق باطلاً بتكذيبه كما جرى مع هؤلاء القوم.

فما أن يكون المقياس لتمييز الحق من الباطل هو النفس وظنونها، لن يفلح صاحبها بالوصول إلى الحقيقة، بل وقد يكون سببًا لفتنة غيره وصده عن الحق، وهذا ما قد يقع به من لم يربي نفسه على التواضع، واحترام ضعفه ومحدودية معرفته، فمن يتكبر على الأعلم منه ويرى أن علمه اعلى وإحاطته أوسع سيقع بهكذا مرض خطير ويحصد ثمرته ألا وهي سلب التوفيق للهداية.

إذ تكمن خطورة هذا العائق أن هذه النفس عندما تكون رغباتها وأهوائها قبل كل شيء، وأولى من كل شيء، سيصل الأمر بصاحبها إنه يُسَخر حتى ما في الحق لنفسه وكل ما لا تهواه نفسه من الحق ينكره ولا يأخذ به، فيخرج من دائرة الإنصاف إلى دائرة الاتصاف بالنفاق.

بالنتيجة في هذه الآية فرصة لنا لنتنبه بأن النفس إن كانت هي المقياس في ما يصل إلينا من دعوة وإنذار، فإنها ستحكم القلب وتعميه وتشغل صاحبها بالدنيا وتملئ عينه بما فيها من زينة وملاذ زائلة، فيصبح لا يرى سواها ولا يبتغي إلا إياها، وتمرضه فتصبح اليقينيات عنده ظنون ووجود حياة اخرى غير هذه الحياة اوهام.

مُعَوقاتِ الأَخْذِ بالتَذْكِرَةِ (٢)

يقال" إن الذي يعيش بالظلمة يصل لمرحلة يعتقد أن عتمته هي نوره"، وهذا ما يوافق وصف هذه الآية لقوم نوح(عليه السلام)، كما في قوله تعالى: {**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**}، فكم أن تعبير الآية وتشخيصها لمرضهم كان واضح، فالكره هو المعيق الثاني الذي تكشفه لنا هذه السورة للأخذ بتذكرة الرسل والأنبياء والدعاة إلى عبادة الله تعالى وحده.

اذ قال لهم أنتم فعلًا رأيتم أن الحق معي وأني صادق بدعوتي، وأن ربي أتى بي إليكم رحمة ولكن الخلل هو أنكم رأيتم ذلك بعيونكم التي في رؤوسكم لا بعيون قلوبكم -أي ليس ببصيرتكم- لهذا لم تدركوها وكأنكم لم تروها.

فالذي استحوذ حب الدنيا على قلبه، لا يكون ذكر الله تعالى والتذكير به محبوبًا عنده، كما في قوله تعالى:{**وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ**

اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، فالذي لا يؤمن بوجود حياة أخرى هو بالنتيجة يؤمن أن هذه الحياة الدنيا هي الحياة الأولى والأخيرة، فقلبه معلق بها لا بسواها.

لذا النتيجة إن حقيقة التذكير كانت بقوله تعالى(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)، أي أنهم من لم يريدوا إبصارها لأنهم كارهون لها –وبتعبير أدق– إنهم نفسيًا لم يكونوا يريدون استيعاب هذه الحقيقة فبقيت عالية لم يرقوا إليها، فهي حقيقة بينة لمن يحمل نفسًا سوية وقلب سليم، فقلوبهم المنكسة وفطرتهم المحجوبة بحجب مرض الكره كانت المانع من أن ينهضوا من غفلتهم إلى تذكر ما جبلت عليه نفوسهم من الإيمان بالحق، وأن يقروا لله تعالى بالعبودية.

فمع أنهم كانوا بالظاهر يتظاهرون أنهم عالين إلا أن الواقع هو العكس! فالقلوب المنكسة هي تنظر للأسفل قد أكبت على وجهها، وتظن إنها تنظر للأعلى وأنها مرتفعة إلا أنها في الحقيقة قد اختارت الترفع عن النور، والانحناء والانغماس في ظلمة الكفر والشرك والفسق.

فهذه الآية تذكرنا بخطر هذا المرض النفسي، فالقلب الكاره للحق لا يمكن أن يبصر النور بل يبقى في الظلمة ولن يلتفت للنور، فالاعمى

لا فرق عنده بين أن يكون بالنور او الظلام بل لا يميز بأي المكانين هو موجود، وهكذا هو الإنسان البعيد عن الحق حاسة الاستشعار والتمييز عنده مفقودة لأنه ذو نفس كاره لا محبة.

بالنتيجة في هذه الآية فرصة لنتفحص قلوبنا ونرى كم من حب الدنيا يملئها، لنحاول إفراغه منه، كي لا نقع في كره حقيقة أن هناك حياة أخرى غيرها، وعلينا أن نتزود لها بالأخذ بتذكرة الرسل ومليئ قلوبنا بذكر رب الرسل.

مُعَوقاتِ الأَخْذِ بالتَذْكِرَةِ (٣)

الجهل المحض هو المعيق الثالث الذي تكشفه لنا سورة هود في قصة نبي الله نوح (عليه السلام)، قال تعالى :{**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**}، ومن الملفت إن ذِكرُ هذا الوصف أتى بعد عاملين نفسيين كانا فيهم وهو سوء الظن والكراهية، وصورتا الجهل المذكورة في هذه الآية –وكأنهما– في الأصل مقوم ومنشأ هاتين الصورتين:

الصورة الاولى: الجهل بغاية الداعي، في قوله تعالى: (لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ) إذ عبر الداعي عما يطلبه من الله تعالى (أجري) لا (المال)، أي الخاتمة الحسنة والرضوان وحسن العاقبة، لا المال والجاه والسلطان في الدنيا، وهذا مطلب كل الرسل الإلهيين.

وهو(عليه السلام) قال أنني بدعوتي لكم لا اريد مالًا– إشارةً إلى نظرتهم المادية في مقياس او غاية رسل الله من بعثهم– ففي السيادة جلبٌ للسلطان والمكانة والتمكن على مُقدرات الخلق وبذلك سينال

المال والثروة، وهذه كلها ليست من غايات أو مقاصد الرسل الإلهيين، لذا نفاها كتصور كان عالق او معتقد كان يتبناه هؤلاء أو شرط يضعونه ثم وفقًا له يكونوا اتباع له.

ومن هنا نفهم أن هذه الجزئية من الآية هي منشأ مرض سوء الظن الذي عندهم، فمن معانيه هو الجهل بالشرع كما قال تعالى: {**فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ**}، فمقياسهم لأتباع الشرع والمشرع لا ينم على معرفة.

أما الدرس هنا فهو: إن النبي رغم إنه يدرك أنهم لا يستوعبوا – كما وصفهم بالعميان– إلا أنه رد عليهم ففي ذلك إشارة لسعة صدره كرسول الهي في أن يرد على كل تساؤل او شبهة او تبرير يتعذر به القوم الذين يدعوهم، وفي ذلك تقوية لعقيدة أهل الحق الذين اتبعوه كي لا تعلق هكذا امور في اذهانهم ويصيبهم خواء ايماني او شك فيما بعد.

الصورة الثانية: الجهل بأن الدعوة للجميع، قال تعالى:(وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ)، وهذا المورد يُبين منشأ مرض الكراهية الذي يحملوه في دواخلهم، فهو يجعلهم ضيقي الأفق محدودي

النظرة فلا يعرفون الأ ما تمليه عليه رغباتهم واهوائهم، فيتجاهلون كل شيء لا يصب في منافعهم الشخصية الأنية، فحتى الدعوة لعبادة الله تعالى كانوا يريدوها لأنفسهم دون غيرهم.

هنا قال لهم إني رسول للجميع بلا استثناء وليس لطبقة دون أخرى أو مجموعة دون غيرها لأن الجميع هو ملاقي الله تعالى، وسوف يحاسب ويجازى كلا على إيمانه أو كفره لذا هو لا يطرد أحد بل يرحب بالجميع.

وفي ذلك رسالة مهمة إن الداعي إلى الله تعالى لا يدعوا ويبلغ وفق مقاييس المجتمع، ووفق ما يريدون كي يتبعوه، بل وفق ما يريد الله تعالى ولو تفرق كل الناس عنه، فكم من رسالي اليوم يَدعي أنه يدعوا إلى الحق، لكنه يدعو بما يحب ويرغب ويوافق مقاييس المجتمع -الجاهل- وهنا هو لم يحقق الغرض- فالداعي يأتي لرفع الجهل عن المجتمع- وإذ به أصبح واحدًا منهم بل وقائدهم دون أن يشعر!!

وعبارة(قَوْمًا تَجْهَلُونَ) جاءت اللفظة بصيغة الجمع والمضارع المستمر أي حالكم الآن وفي المستقبل هو الجهل بهذه الحقائق وعدم الايمان بها لأنكم اخترتم أن تكونوا في فريق العمى لا البصيرة، لذا من الصعب والعسير عليهم ازالة هذا الحجاب بالمسلمات من الدلائل على مصداقيته وصدق دعوته.

وهذا من أخطر وأصعب أنواع البشر المراد هدايتهم ولكن مع حجم صعوبة أمثال هؤلاء هو كرسول عمل بتكليفه والقى الحجة عليهم وإن لم يصل الى تحقيق هدفه الاسمى وهو هدايتهم، وهنا درس آخر نختم به المستفاد من الآية ألا وهو أن الداعي الحقيقي إلى الحق هو الذي يعمل بتكليفه على كل حال.

مُعَوقاتِ الأَخْذِ بالتَذْكِرَةِ (٤)

في قوله تعالى: {**وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُون** }، يتبين لنا معيق أخر للتذكر وهو الغفلة عما فطرت عليه الخليقة من توحيد الله تعالى ذو الملك والجلال، فهنا استخدم النبي (عليه السلام) لفظ الجلالة لا لفظ الربوبية.

فالرسالي دوره أن يَعرف أمراض مجتمعه ثم يدعوهم بما فيه دواء لعللهم، وهكذا أتت هذه الآية لإيقاظهم من غفلتهم ونسيانهم فصرحت على لسان نبيهم بهذه الحقيقة : هل يمكنكم أن تنصروني من الله تعالى الذي أمرني أن أدعو الجميع لطاعته، إن جاريتكم وطردتهم لأجل أن تؤمنوا وتتبعوني؟ فكم التعبير دقيق إذ قدم خوفه من الله تعالى على شرط استجابتهم.

كما وإن هذا الإستفهام {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} كأنه أتى هنا لتذكيرهم بحقيقة ضعفهم وضعفه في قبال سلطان الله تعالى وحاكمته وهيمنته وقوته التي لو عادوا الى أنفسهم وفطرتهم الأولى النقية الصفية لتذكروها، تلك التي اقروا بها في تلك العوالم والتي مروا بها قبل عالم الدنيا، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى وكأنه يريد أن يذكرهم بحقيقة إنه مخلوق مثلهم، هو عبد لكن ميزته عنهم بأنه رسول، إلا أن هذه الميزة لا تعطيه صلاحية التصرف وفق ما يرى بل تجعله ذو تقوى اكثر بحضرة إلهه، ولا يعمل ما يرضي المجتمع عنه بل يعمل ما يرضي ربه عنه، ولو بقي وحيدًا غريبًا مرفوضًا من قبل أغلب قومه، غير مستجاب الدعوة، غير مطاع او مرفوض، وهذا الأدب كثيرًا ما يركز عليه القرأن الكريم عندما يصف لنا الدعاة، ومن ذلك نفهم كم هو مهم لكل داعي أن يبقى يلتفت لهذه النقطة في كل حركاته وسكناته، في كل أقواله وأفعاله.

إذ أن أكبر ثغرة تفتك برسالية الداعية الذي يحمل رسالة لتقريب الناس من الله تعالى هي أن يُبلغ، يدعوا، يتكلم لكن بما يرغب به المجتمع، بما يستطيب له مسامعهم، فهنا هو متأثر لا مؤثر، متفاعل لا فعال ، وهكذا لا تبقى أي قيمة لدعواه المزعومة! بل هو في داخله سيعيش بإضطراب وازدواجية، سيفقد القيمة المعنوية لذاته التي تدعي إنها ذاتٌ رسالية، فإن استخدام الوسائل الخطأ لبلوغ الغاية المقدسة أمر خطير بل وإن الغاية ستكون مجرد إدعاء ووَهم.

هذا وإن النبي كان حازم إلى درجة لم ينسبهم لنفسه، فالآيات في هذا الصدد كان الخطاب فيها(يا قوم) وليس(يا قومي) فقد رسم الحدود

بينه وبينهم وجعلها واضحة، ليس فيها مجاملة، وهذا درس رسالي أخر تعلمنا إياه هذه الآية الكريمة.

وفي قبال ذلك فإن هذا الخطاب بمقدار ما هو خطاب تحذير للكافرين من القوم، هو خطاب فيه بشارة لكل مؤمن عليه ألا ينساها او يغفل عنها بل لابد أن تبقى هذه الحقيقة حاضرة عنده يتحسسها ويتقوى بها، وهي أن الله تعالى المدافع عنه والناصر له لأنه ممن آمن، وإنه تعالى لا يسمح لأحد بالتقليل من منزلته ومقامه عنده لأنه كان ممن اتقى ربه.

مُعَوقاتْ إِتِباعُ المُذَكِر(١)

قال تعالى: {**وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ**}، الملفت في هذه الآية ختامها، إذ ختم النبي خطابه لقومه بنفي الظلم عن نفسه، والظلم يُعرف بأنه "وضع الشي في غير موضعه".

وهذه الالتفاتة القرآنية جدًا مهمة فهي تعالج لنا مشكلة عامة تتشعب من أصل المشكلة التي وقع بها هؤلاء، وفخ قد يقع به الرساليين والدعاة إلى الله تعالى مع أقوامهم؛ فيسقطون من سمو مقام الدُعاة إلى قعر الأدعياء، ويتحول أحدهم من الأخذ بأيدي الناس للهداية إلى الأخذ بهم إلى الضلالة، بدل أن يعلقهم بالله تعالى وأوليائه المصطفين إلى تعليقهم بشخصه ومنهجه ورؤاه وتوجهاته، فهم لن يروا إلى ما يرى ولن يجرؤ على أنتقاده او تقيمه ليس خوفًا بل ذوابًا به، فلا ينظرون له إلا بنظرة ملائكية مثالية!!

فالنبي (عليه السلام) كي لا يكون من الداخلين بصنف الظالمين بل بصنف المرحومين، عمل على أمرين هما:

اولاً : الخروج من حوله وقوته إلى حول وقوة الله تعالى من ناحية خطابه لنفسه فلا يكون بذلك ظالماً لنفسه- أي لا يضعها في غير موضعها- فمحله هو مخلوق وعبد مكلف بمهمة التبليغ من خالقه ومعبوده، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا بمدد وتوفيق الله عز وجل.

ثانيًا: نفى عن نفسه سمة التقديس التي قد توصل قومه إلى اتخاذه ربًا من دون الله تعالى- وبذلك أيضًا لا يكون ظالماً لكن لقومه بأن يضعهم في مسار عبودية وطاعة غير الله تعالى- فالنفس البشرية عندما تنجذب وتحب وتتعلق بشخصية تراها بعين المثالية والتقديس هي عندئذ ستخرج من إطار عبودية الله تعالى إلى عبودية مخلوق من خلق الله تعالى.

وهذا اخطر ما قد يواجهه الداعي او الرسالي إذا ما نظر اليه مجتمعه ومحبيه بهذه النظرة، وهذه الآية تعطي علاج لهذا الخطر، وكيف على كل رسالي تصحيحه وهو أن يكون صارم وواضح في تبيان مقامه ودوره وعلاقته بهم، بل وعدم التقبل لكل تعظيم أو تمجيد او القاب تضفي له هالة معينة، والإنسان الرسالي لابد أن يكون بصيرًا بنفسه فيما إذا كانت توصل الآخرين لذلك أم لا.

فعن الإمام الصادق (عليه السلام): [خرج أمير المؤمنين (عليه السلام) على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم، فقال: لكم حاجة؟ فقالوا: لا، يا أمير المؤمنين، ولكنا نحب أن نمشي معك، فقال لهم: انصرفوا؛ فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب، ومذلة للماشي.

قال: وركب مرة أخرى فمشوا خلفه، فقال: انصرفوا؛ فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة لقلوب النوكى][1]، وهذا حديث واضح وصريح لخطورة هذا الأمر على الداعي والمحبين لهذا الداعي.

فمعرفة النفس والرسالة التي كلف به هذا الداعي والرسالي تثمر قوة الشخصية والثقة والرؤية الواضحة لتكليف، وهذا ما نستشفه في هذه الاية، فهو عليه السلام نفى عن نفسه تلك التصورات بأن يكون مالك خزائن الله تعالى إلا بما يجود به عليه مولاه، او إنه صاحب العلم بالغيب من دون تعليم منه جل وعلا، او صاحب ملك وسلطان إلا بما يمكنه به مولاه.

---

[1] موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ : ج ٤، ص ١٦٤.

ثم انتقل بخطابه إلى نفي تصور خاطيء آخر عمن يريد أن يتبع هدى الله تعالى، بقوله{ **وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ** }، فكون النبي ليس من أهل الغنى المادي أو طلاب الدنيا ومن أهل الزهد هذا لا يعني أن من يتبعه عليه أن يكون كذلك، ومن يتبع الرسول لا يعني أنه لابد أن يكون فقير اليد ولن يتغير حاله.

وهذه نقطة جدًا حساسة عندهم، فهم كانوا يريدون إلهًا يغنيهم بما في الدنيا وكان مقياسهم لرسول ذلك الاله كي يتبعونه أن يرون عليه زينة الدنيا وله من متاعها ما يدخل الاطمئنان في نفوسهم أنهم لن يعيشو الفقر المادي معه، وإذ برسول فقير واتباعه من الفقراء.

النبي (عليه السلام) هنا محى هذه التصور الذي رسموه ووضح خطأ ما توقعوه عن اتباعه، إذ قال لهم إن من اتبعني لا يعني أنني أشترط عليه أن يبقى بلا غنى او حياة مرفهة هانئة ابدًا، إنما من يسعى في الدنيا يؤتى منها ممن هو أعلم بما في نفسه، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى في ذلك تنبيه وتوضيح لمن اتبع النبي من البسطاء والفقراء ، أن من علم الله تعالى أن الغنى لن يطغيه سيغنيه من فضله،

وأن من يرى إن الغنى سيفسد له إيمانه سيبقيه على فقره ويغنيه بالقناعة والإيمان الذي في قلبه ، فهو العالم بما فيه صلاحهم.

وهذا هو الميزان الالهي الحق لمن اهتدى وطلب الاستقامة، فليس هناك حصر للغنى والفقر على أحد دون أخر، لذا كلا الصنفين المؤمن الغني والفقير هما على خير وقد أوتيا من الخير طالما أنهم اتبعوا النبي وهذا هو الخير الحقيقي الذي يبقى لهم يوم الحساب.

مُعَوقاتْ إِتِباعُ المُذَكِر(٢)

قال تعالى: {**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**}

المعوق الآخر الذي منع قوم نبي الله نوح (عليه السلام) من الأخذ بتذكرته هو إنهم لم يروا صدق دعوته إليهم، فالإيمان باطنه التصديق والخلل النفسي الذي أوصلهم إلى الكفر هو إنهم كانوا من أهل الجدل لا إن رسول الله كان مجادلًا -كما وصفوه-لذا عبروا عن كل الحلول والادلة التي قدمها لهم والتي هي بالأصل كانت اجابات لأسئلتهم وشكوكهم وإشكالاتهم، بأنها مجرد جدال! فهم كانوا ينظرون إليه بعين أنفسهم فما كانت محاججاتهم وأقوالهم إلا جدلاً.

فالمجادِل هو من لا يحاور ويناقش ليصل للحقيقة إنما هو إما يريد أن يثبت رأيه أو يسقط رأي الآخر، فهو بدأ وإنتهاءً يرى نفسه الصائب المحق فيما يتبناه ويعتقده، لذا هو حتى وإن سمع ما يفند رأيه وحجته سيكون كمن لم يسمع لأنه مشغول بجداله/ عناده، كيف يجيب؟ كيف يأتي بحجة جديدة وتبرير آخر كي يبقى على ما هو عليه؟

وأدل دليل على جدالهم إنهم طلبوا إنزال العذاب بينما هو أتى لينزل عليهم رحمات ربه وربهم، فهم بحق عميان! فالاعمى وإن كان الخطر محدق به، نازل عليه لا يشعر ولا يدرك خطورته، ولا يقدر على أن يستنقذ نفسه منه، وهكذا هم فلوا كانوا من أهل العلم والتعقل للحظة واحدة وسألوا أنفسهم ماذا لو كان فعلاً صادق ونزل بهم العذاب؟ وماذا ينفعهم عنادهم وجدالهم هذا؟ وإلى أي خاتمة سيكون مآلهم؟! وهل هناك منحة أو فرصة للعودة أو للبقاء إذا ما نزل عليهم عذاب الله الموعودين به.

وهنا كان رد النبي واثق ومباشر على اقتراحهم لنزول العذاب عليهم- فكما قلنا- إن طلبهم هذا نابع من جهل حقيقي، بالنتيجة النبي قال لهم إن الله تعالى إن شاء أن ينزل عليكم العذاب ليهلككم فهو قادر، فالذي خلقكم واحياكم ورزقكم قادر على أن يميتكم ويستبدلكم بخلق آخرين، فلا تعالى عاجز عن فعل او تلبية طلبكم ولا انتم ستتمكنون من النجاة من ذلك العذاب أو رده إن نزل بكم، بل انتم ستكونون عاجزون عن رفع ومنع نزوله إن وقع عليكم وحل بكم، فهذا الطلب حجة عليكم ودليل على ضعفكم وحاجتكم وافتقاركم لا العكس.

فالمجادلون بهذا الطلب وكأنهم كانوا يريدون أن يظهروا بمظهر القوي المسيطر المحق، لكن النبي عليه السلام كشف لهم حقيقة من هو صاحب الحق والموقف الاقوى، ومن المدعي الصادق منهم شفقة منه ورحمة منه بهم.

وفي مشهد من مشاهد التاريخ نرى كيف يرى فريق العمى فريق البصيرة إن قوة ما لديهم من احقاق الحق وتبيانه بأنه جدال، وذلك بوصف خصماء الإمام الحسن (عليه السلام) في هذه الرواية –نأخذ الشاهد منها– [.... قال عمرو بن العاص لمعاوية: ألا تبعث إلى الحسن بن علي فتحضره فقد أحيى سيرة أبيه وخفقت النعال خلفه: إن أمر فأطيع، وإن قال فصدق، وهذان يرفعان به إلى ما هو أعظم منهما، فلو بعثت إليه فقصرنا به وبأبيه، ....وقعدنا لذلك حتى صدق لك فيه.

فقال لهم معاوية: إني أخاف أن يقلدكم قلائد يبقى عليكم عارها حتى تدخلكم قبوركم، ...، قال عمرو بن العاص: أتخاف أن يتسامى باطله على حقنا ومرضه على صحتنا؟ قال: لا، قال: فابعث إذا إليه. فقال عتبة: هذا رأي لا أعرفه، والله ما تستطيعون أن تلقوه بأكثر ولا

أعظم مما في أنفسكم عليه، ولا يلقاكم إلا بأعظم مما في نفسه عليكم، وإنه لمن أهل بيت خصم جدل] [1].

فمن قولهم[**وإنه لمن أهل بيت خصم جدل**] وقوله تعالى في سورة الزخرف: {...**ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**}، نصل إلى حقيقتين الاولى إن منشأ الجدال هو الخصام. والثانية إن أهل البصائر والدعاة إلى الحق هم ليسوا من أهل الجدل لأن مقصدهم التذكير والتبشير والإنذار فما يكنونه للمقابل المودة والشفقة لا الخصومة، أما أهل العمى ودعاة الباطل فهم من أهل الجدل لأنهم يتعاملون مع المقابل معاملة العدو والخصم، وهذا مائز قرآني مهم لمعرفة أهل الحق من أهل الباطل.

---

[1] بحار الأنوار : ج ٤٤، ص ٧٠

الرِسالي الناصِح لا يَيَأس

قال تعالى: {**وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**}

النبي هنا –كما يبدو– لم يتكلم عن مسألة النصح والتبيان والإرشاد والحجج التي بينها سابقًا بل عما يريد أن ينصحهم به مجددًا وكأن تلك صفحة من الإرشاد والنصح قد تمت بها الحجة عليهم، إذ لم تظهر عليهم أي بوادر الاستجابة بل القلوب لازالت مريضة بمرض الكره والجهل والعناد، حيث لا ينفع معها الانذار.

شرط يُفهم بوجهين

فقوله {**إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ**} يمكن أن يفهم منه وجهان:

الوجه الأول هو إنه خطاب للقوم أي أن الله تعالى قد أرسل إليكم النذر من خلالي وكانت مشيئته هدايتكم لكن انتم لم تريدوا هذه المشيئة بل شئتم أن تبقوا على ضلالكم واخترتم مصير الهلاك إذن (فلكم ذلك)، فالله تعالى هو ربكم أي المربي والراعي والمدبر والحاكم عليكم

والبصير بأحوالهم وإليه مرجعكم الذي ستنالون به جزاء ما كسبت ايديكم.

اما الوجه الثاني لعل في ذلك تصوير لعدم فقدان الامل لدى هذا النبي من احتمالية تحقق صلاحهم وكأنه بذلك يخاطب الله تعالى ويسأله بعد أن رآى اصرارهم وعنادهم إنك يارب قادرعلى أن تغير احوالهم فأنت ربهم، وإن كنت يارب ترى أن نصحي لا يزيدهم إلا عناد وبُعدًا فقد ألقيت عليهم الحجة، وهذا المعنى نستلهمه من الاية التي بعدها إذ جاء الخطاب منه تعالى إليه وكأنه رد على قوله بخصوص هذا الأمر، إذ قال تعالى : {**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**}

فهنا تعالى قد أنهى مرحلة التمحيص، وتمييز الخبيث عن الطيب، وتحديد الفريقان ممن آمن وكفر، فمهمة النبي انتهت بهذا المعنى لكن في ذات الوقت هي الآن انتقلت إلى مرحلة جديدة غير تلك المرحلة التي هي بتعبير الآية {بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}.

عبارة [فَلَا تَبْتَئِسْ] فيها بشارة وإشارة

كما أن عبارة {فَلَا تَبْتَئِسْ} فيها بشارة إلى الجبر الإلهي لانكسار قلب رسوله على قومه الذين لم يؤمنوا، فتعالى يقول له إن كان القول

بالإنذار لم ينفع مع امثال هؤلاء فهذا لا يعني أن دورك الرسالي أنتهى فتعيش حالة من اليأس والعجز بل لديك تكليف وأدوار أخرى، فهناك ممن آمنوا وإن كانوا القلة فهم أولى باهتمامك ورعايتك، هم يحتاجون إلى التثبيت والثبات منك.

وفيها إشارةً لصفة من صفات الشخصية الرسالية فتعالى لم يعبر عبر قول نبيه{**وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ**}، فلا (تيأس) أو (تستيأس) أي بالنهي عن اليأس، بل عبر بالنهي عن الابتئاس بقول{فَلَا تَبْتَئِسْ} فالرسالي قد يعيش حالة من الحزن والاستكانة والحسرة على عدم استجابة الناس لنصحه، لكن لا يصل إلى مرحلة يعيش بها حالة اليأس الموجب لتوقفه عن أداء تكليفه ودوره الإلهي لأن الأغلب لم يستجب.

وحالة البِشْر هذه يمكن أن تنمو وتتجذر في الرسالي متى ما عاش هذا المعنى الذي يعلمنا إياه نبينا نوح (عليه السلام) عندما قال {إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، فالاستجابة والاهتداء يبقى متوقف على إرادة الله تعالى وليس على ارادته هو كرسالي ناصح، فتكليفه السعي لا النتيجة.

الرِسالي بَينَ الدَعوةَ وَحُسنُ الأداءِ

قال تعالى:{**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**}

بعد الدعوة وتمييز الملبي من المعاند، بعد أن بقي أهل الجهل على المستوى الفكري، وبقي أهل الكراهية على المستوى الوجداني وأهل الظلم على المستوى السلوكي على ما هم عليه، وبعد أن ألقيت عليهم الحجة، أتت مرحلة الأداء بتوفير سُبل النجاة لمن آمن ، وفي هذه الآية نجد هذه المراحل من حسن الأداء:

الأولى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ)

حيث أتى أمر الله أن اصنع سفينة النجاة أنت ولكن أيها الداعي كل ما تصنعه بواسطة تسديدنا، معونتنا، معيتنا لك، أحاطتنا بك، رعايتنا وإرشاداتنا وتوجيهنا لك، وليس بمعزل عن ذلك ابدًا، وبذلك فقط أنت تتمكن من أن تصنع النجاة، أي قبل صنع شي في هذه الحياة للمجتمع الإنسان، الدعي عليه أن يخرج من حوله وقوته الى حول الله تعالى وقوته.

الثانية: (بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

اذ قالت الاية (باعيننا ووحينا) وليس (بعيني ووحيٍ) وفي ذلك اشارة لتعظيم العظيم والهام الوهاب المهيمن، الذي على عظمته لكن هو سيباشر باعانتك، بنصرك، بإمدادك بالعزة والاكتفاء عمن سواه، ففي ذلك رسالة أيها العبد الرسالي لا تعظم في عينك عندئذ أي عقبة او صعوبة او كثرة العدا، لانك بعين الله المحيط بك، وكيف لك ألا تحسن الاداء إن كنت بعين هذا الرب العظيم، ومددك هو وحي هذا الرب الكريم؟!

الثالثة: (وَلَا تُخَاطِبْنِي)

هذه العبارة تقابل قاعدة عدم الانشغال العائق عن حسن الاداء، إذ احيانًا الرسالي لشدة شفقته وتمنيه للخير والصلاح والنجاة للبعيدين ممن ظلموا انفسهم بالابتعاد عن الحق، يتسبب في إحداث خلل أو ضعف أو قلة نشاط في ادائه، فيكون مردود هذه المشاعر العظيمة والسامية عكسي وليس ايجابي على ما هو مكلف به الان.

لذا التسليم للاوامر الالهية والنظر فيما هو مكلف به الآن لإتمامه واداءه بأفضل شكل ممكن هو الاهم والاصح، وهذا يتطلب افراغ الذهن من كل من أدى معهم التكليف والقى عليهم الحجة، فالنفس

بطبيعتها تحتاج الى تهيئ وتركيز وعدم تفكير بمن العناد سجيته، فهذا في الحقيقة من المشتتات والأمور التي تهدر طاقة الإنسان الرسالي.

فهو هنا سيكون ممن ينظر للجانب المظلم من المجتمع، ذلك الذي هو ممن اختار الظلام واختار البقاء به، ولم يستجيب للنور الذي أوضيء امامه، مما قد ينعكس أن ينسى اولئك الذين اختاروا النور وساروا معه، فهؤلاء أولى بأن يبذل الجهد والطاقة لحفظ ايمانهم، لتثبيت اقدامهم.

فصناعة الفلك كانت مهمته وتكليفه لنجاة الذين آمنوا معه، فهذا أولى بالتفكير والعمل وبذل الجهد في سبيل إنجاحه بل أن التركيز على من فيهم نور سيوسع رقعة النور، بينما التركيز على أهل العناد قد يفقده فرصة نجاة أهل الإيمان، فهناك طوفان وغرق سيحل بالظالمين فإن لم تصنع السفينة بموعدها يعني سيغرق الجميع.قُصصٌ وَ

كيف يتعامل الرسالي مع الحروب النفسية

قال تعالى: {**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**}

من الحقائق التي لا تتغير هي إن من كانت دوافعه إلهية سوف يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة، وسيدفع عنه تعالى كل ما قد يضعفه أو يزلزله، وهكذا كان نبي الله(عليه السلام)، فالآية ابتدأت بـ{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ} إشارة للاستمرارية في التركيز على أداء مهمته الالهية ثم ذكرت الصعوبات والمعوقات التي كان يواجهها.

فالملفت أن تلك الصعوبات هي ليست نابعة من المهمة التي كان عليه إنجازها، حتى أن القصة القرآنية لم تشر إلى ذلك –في إنها صعبة جداً بالمقاييس الطبيعية– إلا أن القصة ذكرت صعوبات أخرى متمثلة بالبيئة الرافضة وطبيعة التصادمات والأدوات والأساليب التي استخدمتها لإيقاف النبي عما كان يعمل.

وفي هذه الآية ذكرت أحدها وهي السخرية فهي كانت من أبرز أدوات وأسلحة قومه الكافرين برسالته ورساليته، وهو سلاح كثير ما تستخدمه الأقوام التي تتبع الباطل، فهي تعتمد على الحروب النفسية بالدرجة الاولى، وكأنها بذلك تكشف عن نقطة ضعفها لا نقطة ضعف المقابل، لذا النبي واجههم بنفس السلاح.

إلا إنه بَين مفهوم سخريته منهم التي هي ليست سخرية الاحتقار والاهانة اللفظية التي تصدر ممن لم يتربوا في المدرسة الالهية بل بمعنى تصوير كيف سيحل عليهم العذاب الكاشف عن سوء الخاتمة.

كما نجد إن الآية عبرت بـ[نسخر]، بينما في عملية الصناعة قالت[يصنع] ولعل في ذلك إشارة إلى أن النبي كان هو صانع هذا الإنجاز في إنقاذ النفوس المؤمنة، وكأن بهذا التفرد شكر وتعظيم لهذا النبي ولما قام به ولما تَحمله للقيام بهذا الأمر، أما في عملية السخرية آتت بصيغة الجمع فهي- كما يبدو- إما أن النبي كان بذلك يشير إلى قوة موقفه كقوة وموقف الفرد الذي يقاس بأمة فهو في هذا الموقف كان أمة، ولعله إشارة وبشارة لمن سوف يؤمن الان ويركب معه السفينة غداً هو يعيش هذا الشعور تجاه من سخر منه في الأمس، فكان بالجمع اشارة له ولمن آمن معه.

بل إن السخرية أتت بصيغة الحاضر لا المستقبل إذ أن الآية عبرت بأنه ليس [سيسخر] منهم لما يَحِلُ عليهم العذاب بل عبرت الآية[نسخر]، أي أننا الأن على يقين وبصيرة نرى بها ما سيحل بكم من العذاب، نحن الآن نرى كيف أن الخاسر الحقيقي –بالمقاييس الالهية– انتم وكيف إن اعمالكم وجهودكم الدنيوية لن تنجيكم من العذاب بل ستكون وبال عليكم وستكون سبباً لأن تكونون مقيمين بالعذاب حيث لا توجد عندكم فرصة للنزوح أو المغادرة بل ستكون اقامة جبرية دائمة.

وهنا نرى في هذا التقريع والكلام مع حدته وشدته إلا أن باطنة شفقة ورحمة وتنبيه، فهو يريهم ما سيؤول إليه مصيرهم إن بقوا على ما هم عليه، وكذلك فيه تثبيت وتقوية لأهل الايمان ممن تبعه فالذي يؤمن بخاتمته، ويعرف خاتمة غيره ما هي لن ينهزم ولن يتراجع باستهزاء هذا أو أذى أو استصغار ذلك.

ولهذا هو فصل لهم قائلاً اولاً سيأتي العذاب وترونه وستخزون وترون باعينكم من الذليل ومن هو العزيز، من هو الحق ومن هو الباطل، ثم يحل عليكم هذا العذاب بشكل دائم مقيم أي لن يبرحكم ولن يترككم فهو سينهي وجودكم في عالم الدنيا ثم يرافقكم بعدئذ في عالم الاخرة.

بالنتيجة الاستناد الى القوة الالهية في بناء القوة النفسية التي عمادها الإيمان بالمعتقد والبصيرة فيما هو أتى ومرتقب سيجعل الرسالي يقظ ومحصن من أي حرب نفسية يوجّهها له المعادي او المخالف، وهذا ما يثمر تنفيذ وتحقيق المشروع الإلهي الذي به قد كُلف.

آيتان وإشارتان تربويتان لكل رسالي

قال تعالى: {**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ** ۚ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**}، في هاتين الآيتين نجد عدة إشارات تربوية، منها:

الاولى: الرسالي يعمل بالأسباب ولكن في النهاية هناك مواعيد الهية عليه أن يسلم لها ويعمل وفقها، فهو لا يعمل أكثر مما هو مطلوب منه، وهذه ما نستلهمه من هذه الآية فلما حان موعد تنفيذ الوعد الالهي بنجاة أهل الإيمان وإغراق أهل الكفر امتثل نبي الله لما قيل له، إذ لم تقل الآية أن النبي لما أنهى بناء السفينة حمل بها من آمن بل أنتظر الأمر الالهي، وذلك في قوله تعالى {**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ...**}.

كما إن الآية فصلت بما يجب عليه حمله معه على ظهرها، بقوله تعالى: {**احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**}، بل حتى فيما يخص أهله

كان هناك تحديد وسماح لأفراد معينين، وهذا فيه قمت الامتثال والتسليم والعبودية لديه كرسالي.

الثانية: إن الآية لم تقل [احْمِلْ فِيهَا] بل قالت [احْمِلْ بِهَا] وفي ذلك– كما يبدو– تأديب إلهي لطيف لنفس رُسله ولنا لمفهوم التوحيد، فلو كان الحمل في الآية بـ[معك] وكأن هناك شيء في النفس يحصل بأنه هو المنجي لهم والمنقذ لهم، لكن لما نسب الحمل للسفينة ففي ذلك حفظ لحقيقة إنك رسول والسفينة وسيلة والمنجي والحافظ هو الله تعالى لا سواه، وهو درس لكل رسالي أن يكون دقيق في دعوته وتكليفه، أن لا ينسب شيء لنفسه، كي لا تتعلق نفوس العباد به فيكون مبعداً لها لا مقرب، وهذه إشارة مهمة جداً.

ولهذا الاية التي بعدها أشارت لهذه الحقيقة الايمانية المتعمقة في نفس هذا الرسول، فهو قال لهم [**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**] بعد أن أتى الأمر الإلهي، فهو لما كان الامر الالهي قد صدر له لم يأمر الا بعد أن بدأ بإسم ربه، وبذلك إشارة منه إليهم أنه لا ينسب نجاتهم له بل لربهم الذي أرسله لهم وأشار إليه بصنعها، وإلى من بقوته وقدرته ستجري وترسي وتحملهم، وبرحمته ومغفرته التي شملتهم قد

حصلت نجاتهم، فهذا التجرد من الانا والنظرة للنفس هو الذي يرفع الإنسان ويجعله ذو شأن ووجاهة عند الله تعالى.

الرسالي والاختبار بالمقربين

قال تعالى: {**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ،...وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**}

في زاوية من زوايا قصة هذا الرسول العظيم تبرز لنا أهم الحقائق الصعبة والاختبارات النفسية الموجعة التي قد يمر بها الرساليين، وهي أن ليس كل من نحبهم ونريد لهم النجاة سوف يركبون معنا سفينة النور المنجية، وليس كل من نتوقع أنهم أول الراكبين سيكونون ليس آخرهم بل قد يكونون من المتخلفين الرافضين للركوب.

فالرسالي بطبعه يعيش هموم البعيدين عن الحق ولديه حالة من الشفقة والرحمة على الضالين، فكيف يا تُرى حاله على الأقربين والمقربين أياً كانت صلة ومستوى هذه القرابة؟! لكن على كل حال عليه أن يتقبل ذلك لأنها سنة الله تعالى في خلقه، بلى إنها سنة التخيير، بل عليه أن يتوقع حصول ذلك لان ليس كل ما نرجوه نبلغه، أو نتمناه يحصل.

فالنبي نوح(عليه السلام) كما تذكر الآيات مع عناد واصرار إبنه على أن يختار مأوى غير الله تعالى إلا أن خطابه كان مليء بالشفقة والأمل برحمة الله تعالى أن تشمله، فمع أن الآية تقول أن الموج حال بينهم وراءه مغرقاً، ومع أن الامر انقضى وها قد انتهى نزول العذاب، وبعد أن رست السفينة إلى حيث عليها أن ترسوا، ونجا من ركب وعادت الحياة لطبيعتها، كان لازال النبي يفكر ويأمل بنجاة ابنه من الغرق! حتى إنه لم يكتفي بالامل والرجاء الداخلي بل بادر بنداء الله تعالى ليس حمداً وامتناناً على نجاتهم بل أول ما نطق به كان هو {**فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**}، فقد كان نداء كله حياء ومليئ بالتسليم ممزوج بالرجاء وعدم فقدان الأمل بفرصة نجاته.

فجاء الرد نعم هو إبنك ولكن ليس من أهلكِ لأنه لم يختر البقاء معك واتباعك، فهو بذلك لم يكن من الباقيات الصالحات لتشمله الرحمة الإلهية، ولعل وعد الله تعالى الحق الذي قدمه نبي الله نوح(عليه السلام) كسبب لتحقيق نجاة إبنه لم يكن في محله، وهو-كما يبدو- الذي جاء في قوله تعالى:{**...قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ...**}، أي نجاة الأهل، فالابن من هؤلاء الأهل ويلحق أبيه إن كان قد تحقق فيه شرط الاستحقاق، ففي الحساب الاخروي لا توجد انساب او شفاعة دون مقدمات استحقاق، ولعل العاطفة هنا غلبت عليه، لذا عاد للإعتراف بأن ما اراده لم يكن مناسب فطلب المغفرة والرحمة.

وفي ذلك درس لكل رسالي أن تكون نظرته لجميع العصاة نظرة واحدة، وأن يتبرأ ممن ظلموا أنفسهم وعصوا ربهم، نعم أن يكون مشفق ولكن ليس الى درجة أن يطلب تغير حكم الله تعالى فيهم لأسباب عاطفية، فلا قرابة ولا انساب في حكم الله تعالى.

الرسالي بركة دائمة وسلام ممتد

قال تعالى: {**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**}

في هذه الاية اشارتين:

الاشارة الاولى: هذه الآية وكأنه تعالى يقول لنبيه إكراماً لعبوديتك واخلاصك في أداء تكليفك، لك منا سلام وبركات، فهذه البركات لم تكن له فقط بل ستصل اثارها إلى الامم التي معه ممن ستتبع نهج السماء وتسير على خط الانبياء، وستشمل حتى تلك التي لم تؤمن – كما أشارت نفس الآية بقولها{**وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**} ولكن في النهاية لن يدوم التنعيم وستنال مثل هذه الأمم جزائها، فهذه سنة كونية الهية كلاً يجازى بما آمن وبما كفر، وبما عمل خير كان أو شر.

الإشارة الثانية: الرسالي عند تحقق النصر الإلهي يبقى بين خوف ورجاء فمفردة {اهْبِطْ} وكأن فيها اشارة الى تحقيق التوازن النفسي بين الفرح بما نالوه من عزة وكرامة ونصرة إلهية وبين أن لا يطمئنوا بأن هذا

مؤشر لعصمتهم من أن ينحرفوا أو تزل يوماً ما قدمهم –وبتعبير آخر– هذه البركات والسلام على المستوى الجزئي الدنيوي لا الكلي الأخروي، فالعودة للعيش في الدنيا بعد النجاة من بلاء الإغراق الذي هلك به وغادر الدنيا بسببه الكثير هو هبوط للداني لا عروج او التحاق ملكوتي؛ فالدنيا تبقى دنيا.

حتى أن نفس كتاب الله تعالى عبر عن نزول آدم(عليه السلام) للدنيا بالهبوط إذ أن المكوث في الدنيا لنا هو هبوط لأنها العالم الداني، أما العروج فهو للعالم الأخروي وهو حقيقة الترقي والتسامي، لذا فهذه التعبير يشير إلى أن ما أنتم به الآن هو الشيء ذاته والحقيقة ذاتها فلا تغفلوا عنها، فكل نجاة ونجاح تنالونه كمؤمنين في الدنيا هو جزء من رحلة غير مكتملة و ثمرة غير ناضجة، سترونها خالصة فقط عند مغادرة هذا العالم، فلا تغتروا ولا تطمئنوا...

وهنا الخطاب كان الى المرسل إذ قالت الآية{ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ** }، وليس الى العامة ممن معه، فكم هي إذاً حقيقة خطرة وقد يسهل الغفلة هنا ونسيانها، وكم علينا بالمقابل تذكرها ووضعها أمام أعيننا دائماً.

ختام ومفاد لكل رسالي

وهكذا ختمت لنا هذه السورة قصة هذا النبي بقوله تعالى {**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**}، إذ عبرت عن هذه القصة بأنها انباء غيبي موحى الى النبي محمد(صلى الله عليه واله) – وهي لكل موحد تالي لكتاب الله فهو مخاطب بهذه الاية– بالنتيجة هذا التعبير الإلهي {**مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ**} فيه إشارة إلى تقديم شيء عزيز وفضل كريم منه سبحانه للنبي لمواصلة مسيرته الرسالية.

وهو ما اتى بعدها بقوله{**هُذَا فَاصْبِرْ**} أي الغاية من هذه الأنباء الغيبية هو حيازة الصبر ذلك المفتاح الذي به يُدخل الرسالي هذا الميدان، ويتعلم به طرق الدعوة بإتقان، فالصبر ليس نافع في مواصلة المسيرة فقط بل نافع في تحقيق البصيرة تلك التي من خلالها يضع أمامه ما ينتظره من حسن الخاتمة، وبلوغ عاقبة المتقين الأبرار، وهكذا يكون ممن يواصل فلا ينفصل، يرتقي فلا يتوقف.